الحمدُ لله الذى أعزَّنا بالإسلام ولا عزَّ لنا فى سواه، والصلاةُ والسلامُ على خاتم الأنبياء وآله وصحبه ومن والاه.

وبعد،،

فقد شغلَ العلامةُ «ابنُ خلدون» الفكرَ الإنسانىَ على مدى قرون من الزمان، ومازال يشغل الدراسات الفكرية والأكاديمية بسبب ما قدَّمَهُ من نظريات عملاقة، وأبحاث رصينة فى فلسفة الاجتماع من خلال «مقدمتِه» التى اشتهرت باسمهِ، حتى أُطْلِقَ عليه «مؤسس علم الاجتماع».

كُتِبَتْ عَنْهُ دراساتٌ اسْتشْرَاقِيَّة فى جامعات أوروبية أشادَ كاتِبُوهَا بعقليتِه الفَذَّة، وبطريقتِه المنهجيةِ التى لم يُسْبَق إليها فى دراسة التاريخ والعلوم التى بَرعَ فيها، مما جعلهم يُقرُّونَ بعبقريته ويشيرونَ إليه بالبنَان، حتى إنه نالَ شهرةً عظيمة لم ينلها أى باحث أو مفكرٍ آخر مسلمٍ أو غير مسلمٍ، شرقى أو غربى، حتى زادت الدراسات المرصودة عنه على ثمانمائة عنوان بين دراسة عامة أو متخصصةٍ وبلغات متعددة أهمها، العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية والعبرية حتى بعض اللغات الآسيوية المختلفة.

أضف إلى ذلك أن الجامعات العربية والغربية- على حد سواء- احتضنت ما يزيد على خمسمائه أطروحة علمية بين دبلوم وماجستير ودكتوراه.

كما أن المؤسسات العلمية فى العالم الغربى قد أقامت كثيرًا من المؤتمرات والندوات لدراسة فكر «ابن خلدون» فى مختلف جوانبه ومنِ أمثلة ذلك الندوة

obeikandl.com

التى أقيمت فى ٢٧ مايو ١٩٨٢ فى جامعة «دوك « بالولايات المتحدة الأمريكية بمناسبة الخمسين بعد الستمائة لميلاد العلامة «ابن خلدون» التى استدعى لها المستشرق الكبير «فرانس بوسنتال» «Frans Posental» صاحب أشهر ترجمة انجليزية لـ ((مقدمة ابن خلدون)) واشترك فى هذا المؤتمر عدد من أساتذة الجامعات الأمريكية.

كل هذا عدا المهرجانات العربية التى اقيمت فى كثير من أقطار الوطن العربى للاحتفال بمناسبات لها علاقة «بابن خلدون» فى سنة ١٩٦٢م و ١٩٧٩م فى القاهرة والرباط وغيرها شارك فى أبحاثها مستشرقون متخصصون فى الفكر الخلدونى من جامعات أوروبا.

• محطات فى حياة ابن خلدون:

مع أن الكتاب الذى بين يديك فيه ترجمة مفصلة عن «ابن خلدون» إلا أنى رأيتُ أن أضع محطات موجزة لحياته لتكون مدخلاً لما سنتحدث عنه وعن اهتمام وثناء علماء الغرب عليه.. إنه عبد الرحمن بن حمد بن خلدون الحضرمى سليل أسرة حضرمية ثرية شاركت فى فتوح الأندلس، وأسرته أسرة علمية فيها الأئمة والفقهاء والأعلام.

- ولد «ابن خلدون» بتونس «٧٣٢هـ - ١٣٢٢م»، وبها شبَّ، وبدأ حياته فى العلم والتحصيل طالبا فيٍ جامعة الزيتونة.
- خاضَ الحياة العامة بعد أن بلغ مكانة العلماء، لكنها كانت حياة شاقة حافلة بالمآسى والأسفار والخصومات والمنازعات السياسية والسجن.
- انتقل من تونس إلى «تلمساء» إلى «بجاية» فـ «الأندلس، ثم رحلَ إلى الإسكندرية فالقاهرة، ثم إلى الشام فى أثناء غارات «تيمورلنك» ثم عاد إلى القاهرة متوليا التدريس فى الجامع الأزهر وقضاء الأحكام، ومشيخة المالكية

- طلب قدوم أسرته من تونس إلى القاهرة، فركبوا السفينة، لكنها غرقت بهم جميعا، وكانت هذه أكبر مأساة فى حياته
- ومن العجيب أنه بين هذه العواصف والمآسى المتوالية، استطاع أن يفكر ويكتب، ويخرج للناس علومًا ومعارف شغلت الناس ومازالت.
- لم تكن حياته قصيرة، لكنها كانت أيضا عريضة واسعة، ولولا انغماسه فى الأعمال السياسية والأحداث الكثيرة التى شغلت وقته لكان له انتاج غزير، وثراث أكبر وأكثر مما ترك.
- توفى «ابن خلدون» فى القاهرة سنة «٨٠٨هـ» عن ست وسبعين سنة فرحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى.

● آثـــاره:

ترك»ابن خلدون» مجموعة لابأس بها من المؤلفات العلمية المهمة، لا يمكن أبدًا أن تقاسَ بكميتها، فغيره من الباحثين قد خَلفُوا أضعاف ما أَلَّفَهُ عشرات المرات، ولكن لم تترك مؤلفاتهم أى أهمية كتلك التى تركتها مؤلفاته.

ويمكن أن ترتبط آثاره بفترتين رئيستين هما: الفترة المغربية والفترة المصرية، ولاشكَّ أن الفترة الثانية- وهى المصرية- كوَّن فيها مدرسة تاريخية كان من تلاميذها:

الإمام ابن حجر العسقلانى، رغم ما بينهما من خلاف، والمقريزى، وابن تغرى بردى، والسخاوى.

ومن أهم مؤلفاته :

١-مقدمة ابن خلدون، وهى مقدمة لكتابه»العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر»

٢- التعريف با بن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، وهو ترجمة ذاتية

٣- لباب المحصَّل فى أصول الدين، وهو مختصر لكتاب الرازى «محصل أفكار المتقدمين».

٤- شفاء السائل لتهذيب المسائل، وهو من كتب التصوف

٥- الوصف الجغرافى لبلاد المغرب، وقد كتبه بطلب من «تيمورلنك» وهناك مؤلفات له فى المنطق، والفقه، والرياضة، والأدب ولكنه لم يصل إلينا شىء من هذه المؤلفات.

ومن أراد الاطلاع على آثار ابن خلدون المفقودة، فليرجع إلى البحث الجاد الذى كتبه العلاّمة الدكتور المرحوم «عبد الرحمن بدوى» بعنوان «مؤلفات ابن خلدون».

• صاحب نظريات:

كانَ «ابن خلدون» صاحبَ آراءٍ ونظريات طريفة، لم يهتدِ إليها علماءُ الغرب وفلاسفَتهُ إلا بعد سنينَ طويلة.

ولقد تكلمَ عن موضوع «الدولةِ والمُلك» بإفاضةٍ، وتحدث عن أثرِ سياسة البطش والعنف فى نفوسِ الشعب، وعن حمايةِ الدولة، وصفاتِ الأمير، وأعطيات الجند، ومنافسةِ الأمير للرعية فى التجارة والكسب، وتطلعه إلى أموال الشعب، وأثر ذلك فى حقِد الشعب عليه، وعن أسباب تطرق الخلل إلى الدولة، وعن امتداد يد الجند إلى أموال الرعية قبل أن يظهر العالمِ الإيطالى الشهير «ميكافيللى» صاحب كتاب «الأمير».

كما بحث فى فلسفة التاريخ قبل أن يظهر الفيلسوف الفرنسى «أوجست كومت» صاحب الفضل على علم الاجتماع الحديث.

وقد استعاد «دوركايم» مؤسس علم الاجتماع بفرنسا كثيرًا من آراء ونظريات «ابن خلدون»، ومنها أن وجود الجماعات البشرية أمر واقع ملموس، وأن هناك صلةٌ بين عدد الجماعة والثروة و «ابن خلدون» هو الذى قال بتفضيل البدو على الحضر، وبأن البدو أقرب إلى الخير من الحضر وأهله، وذلك قبل أن يظهرَ الكاتب الاجتماعى الفرنسى»جان جاك روسو» الذى نادى بوجوب رجوع الإنسان إلى الحياة الطبيعية الأولى.ومن آراء «ابن خلدون» التى سبق بها زمانه قوله: **«إنَّ المغلوب مولعٌ دائمًا بتقليد الغالب فى شعارهِ وزيِّهِ ونحلته وسائر أحواله وعاداته»**

• منهجه فى دراسة التاريخ:

وضع العلامةُ «ابنُ خلدون» قواعدَ منهجية للتحقيق التاريخى لم يُسْبَق إليْهِ، وناقش المؤرخين فيما ذهبوا إليه من مزاعم وفيما ارتكبوه من أخطاء، ورأى أن أكثر ما يعكر صفو الحادثة التاريخية ويجعلها واهيةً وعريقةً فى الوهم والغلط، الميلُ والهوى، والتعصب المذهبى، وتملق الحكام والأقوياء، وعدم إلمام المؤرخ بأحوال المجتمع وطبائعهم، ويمثل لذلك بقوله:

« إذا كان المؤرخ- مثلا- من الشيعة حاولَ قدر استطاعته أن يسىء إلى الأمويين، وأن يملأ تاريخهم بأشنع الفظائع، وإذا حاول- المؤرخ- التقرب من الملوك فإنه يغضى عن السيئات ويجسم الحسنات ويبالغ فيها، وربما اختلق من الحوادث ما يرفع به شأن الملوك، ثم إلى تصديق المؤرخين لكل ما ينقلونه من غير تمحيص ولا نقد، ولو أنَّ المؤرخين رجعوا إلى قاعدة التعديل والترجيح التى يتبعها علماء الحديث لأدَّوا للتاريخ خدمةً عظيمة».

ثمَّ يحملُ على المؤرخين ويصفهم بالمغالطين فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم على مجرد النقل غثا أو سمينا دون عرضها على أصولها وقياسها بأشباهها، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار، ولذلك ضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط لأن الحوادث مقيدة بقوانين طبيعية واجتماعية.

ولذلك نراه يهاجم أوهام المؤرخين بأسلوب علمى رصين فيقول على سبيل المثال:

ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافةً فى أخبار التَّتابعه «أهل تُبَّعْ» «ملوك اليمن» وأن موسى هو الذى سمى البربر بهذا الاسم، وأنه لما انصرف إلى المغرب حجز فيها قبائل حِمْيَر..

وغير ذلك من أخبار موغلة فى القِدَم والأزمان البعيدة، فيعلن أن أكثر هذه

الأخبار أشبه بأحاديث القصص الموضوعة، والروايات المكذوبة، والخرافات التى لايصدقها عقل ولا يقبلها منطق.

ولما كان ابن خلدون يعتقد أن التاريخ فى حقيقته خبر عن الاجتماع الإنسانى بكل ما فيه طالب المؤرخ أن يدرسَ أحوال المجتمعات ليكشف عن العوامل التى تكسب الأمم كيانها وميزاتها، ومن أهمها: البيئة، والعصبية وآثارها، والغرائز، ونحوها

● ثناء علماء الغرب عليه:

أثنى علماء الغرب ومفكروه على العبقرية الخلدونية، وأوضحوا بجلاء عظمة «ابن خلدون» كواحد من رواد الفكر الإنسانى الذين أنجبتهم حضارة الإسلام، ونستضيفُ من أقوالهم بعض الآراء:

- يقول المؤرخ الألمانى «فون فيسندونك : «**يقفُ «ابن خلدون» مؤرخ الحضارة الإسلامى العظيم وحيدًا فى المشرق لم يعقبه خلَف ولم ينسج على منواله ناسج...» إلى أن يقول : «.. وتدوى ميول المفكر والسياسى الإفريقى فى معترك الحوادث مهما كانت وجهتها دويًا يتردد صداه فى عالم عصرنا**»[1]
- وعلى هذا المنوال ينسج المستشرق الإسبانى "بونس بويجس»[2] رأيه فى مفكرنا العظيم فيقول: « **ظهر ابن خلدون فى القرن الرابع عشر الميلادى كمحلل ومختصر للحضارة الإسلامية فى عصره، وهو شخصية من أعظم ممثلى التاريخ الفلسفى البعيد المدى**».

ومن بين الذين أثنوا على «ابن خلدون « المستشرق «كلوديو» الذى كال له المديح، وكتب عنه مجموعة من الأبحاث والدراسات، وقدْ وازنَ «كلوديو» بين «ميكافيللى» و«ابن خلدون» فقال: « **إذا كانَ «ميكافيللى» قد علمنا وسائلَ**

(١) انظر الأسس الاسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته د/ مصطفى الشكعة [١٧٥]
(٢) مستشرق إسبانى، ولد سنة ١٨٦١م، وتوفى ١٨٩٩م.

حكم الناس، فإنهُ فعلَ ذلك كسياسىٍّ بعيد النظر، ولكنَّ العلامة التونسى «ابن خلدون» استطاعَ أن يْنفُذَ إلى الظواهرِ الاجتماعية كاقتصاديٍّ وفيلسوفٍ راسخ، مماً يحملُناَ على أن نرىَ فى أثره منِ سمو النظر والنزعة النقديةِ مالم يعرفهُ عصره»

• وقال "دِى بور» المستشرق الهولندى المعروف:

«لقد حاولَ «ابن خلدون» أن يؤسِّسَ نظامًا فلسفيًا جديدًا لم يَحُلْ فى ذهنِ «أرسطو»، وأن يجعلَ من التاريخ نظامًا فلسفَيا، وهو يقولُ لنا : إن هذا النظامَ إنما هو الحياةُ الاجتماعية ومادَّةُ المجتمع وثقافتهُ الفكرية، ومهمة التاريخ هى أن يُبين كيفَ يعملُ الناسُ؟. وكيف يحصلونَ على أرزاقهم، ولماذا يقاتِلُ بعضهم بعضا؟ وكيف يجتمعون فى جماعات كبيرة فى ظلِّ الزعماء؟ وكيفَ يُلهمُون أخيرًا فى ظلِّ حياة الحضَر رغبة العناية بالعلوم والفنون الرفيعة؟ وكيف تتقدمُ الحضَارةُ من البداية الخشَنةِ إلى الترف الناعم وتزدهر، ثمّ تضمحِل وتموت؟

فابن خلدون بلا ريب هو أول من حاول أن يشرح بإفاضَةٍ تطورَ المجتمع وتقدمه لأسبابٍ وعللٍ معينة، فهو يرى فى سيرِ الحضارةِ تناسقًا داخليًا منظمًا..

ثم يختم «دى بور» كلامه بقوله:

« إن ابن خلدون كان يؤمِّلُ أن يخلفَهُ من يُتمَّ أبحاثهُ فى سبيل التحقيق، فكما أنهُ دونَ سَلَفٍ، فكذلِكَ بقىَ دون خلَف»

• أما الأستاذ «كويلريونج» فيعلن قوله:

«نذكر بالإعجاب واحدًا من عظماء الإسلام هو «ابن خلدون» التونسى، الذى يَصحُّ اعتبارهُ أوَّلَ عالمِ اجتماعى ذى نزعَةٍ عالميةٍ علمية، فقد أسسَ علم الاجتماع، ووضعَ القوانين الأساسية للرقى والاضمحلال القومى، وأعطى العواملَ الطبيعية مكانهَا، بجوار العواملِ الأخلاقية والروحية، ووسعَ فهمَهُ لمدلول علم التاريخ على أساسٍ فلسفى».

• وكانت شهادة الأستاذ «توينبى» الأستاذ بجامعة «اكسفورد» فى كتابه «دراسة فى التاريخ» حيث قال:

«إن ابن خلدون» من العباقرة، وفى «مقدمته» دلائلُ ساطعة على سعةِ النظر، وعمقِ البحث، وقوة التفكير».

- ومن الذين أظهروا إعجابًا كبيرًا بـ «ابن خلدون» المستشرق الإنجليزى «بيتر ما نسفليد» الذى يسجل أن « **ابن خلدون يعتبر من أعظم العقول المبدعة التى أنتجَهَا العالم العربى والإسلامى فى القرون الوسطى، وذلك لأنه ناضل ضدَّ تسفيه العقل البشرى، وما وردَ فى «المقدمة» يوضح بجلاء أنه كالغزالى قبله، سيظل بكل تأكيد فى إطار التراث الإسلامى جزءًا من عظمة الإسلام التى يجبُ التركيزُ عليها».**
- أما «جيب» فيعرب عن وجوب افتخار العالم الإسلامى بـ «ابن خلدون» الذى يعده من كبار العلماء المسلمين المالكيين المحترمين فيقول: «**إن المسلمينَ لهم الحق أن يفخروا بهذا العبقرى الذى حاول فى القرن الرابع عشر أن يُعيد بناء التاريخ على أسس علمية، ولكن موقفه العلمى المبدع إزاء مشكلة الطريقة التاريخية لم يلقَ أى اهتمام فى الحلقات السُّنيَّة، بل بقيَ مهملا منسيًا إلى أن بُعِثت مؤلفاته فى القرن التاسع عشر**».
- ونختم برأى المستشرق الفرنسى "الفريد بيل» الذى يقول عنه:
- **إن تاريخه عن «البربر» سوفَ يبقى دائمًا دليلاً ثمينا لكل شىء يتعلق بحياة قبائل «البربر» فى المغرب، وما يتعلق بالتاريخ الوسيط لهذه المنطقة، كما أن «مقدمته»- التى تعاملت مع كل فروع المعرفة والثقافة العربية- سوف تجد فيها العمق فى التفكير، والوضوح فى العرض، والصحةُ فى الأحكام».**

وهكذا تمتلىء عشرات الكتب ومئات الأبحاث بمثل هذه الآراء المعبرة عن إعجاب غير عادى بفكر «ابن خلدون» وما توصَّلَ إليه من آراء ونظريات تتخطى عصره، وتتجاوزُ محيطَه البيئى، وأعتقد أننى ما أتيتُ إلا بجزء بسيط جدا من آراء الغربيين وثنائهم، ولو توسعتُ ما انتهيتُ، ولصارَ البحث نقولاً كثيرة تصبَّ كلها فى اتجاه الثناء على عالمٍ فرضَ نفسه على الباحثين والمفكرين بسبب عقليته المتقدة، وفكرهِ العملاق.

• وقفة مع الكتاب:

اهتمَّ الدارسون والباحثون بكتاب «غاستون بوتول» عن «ابن خلدون فلسفته الاجتماعية»، وأفادوا منه فى أبحاثهم ونقلوا عنه نصوصًا تخدم أبحاثهم.

علما بأن هناك أعلامًا غربيين كتبوا عن «ابن خلدون» بنفس العنوان، نذكر منهم على سبيل المثال:

«ابن خلدون»، للمستشرق «إيف لاكوست» طبع فى بيروت «ابن خلدون»، لأجناتنكا طبعة مركز اتحاد المحامين العرب، القاهرة ومع ذلك كان اعتماد كثير من الباحثين على كتاب «غاستون بوتول»، وهذا هو ما دفع شيخ المترجمين «عادل زعيتر» على الإقدام لترجمته ووضعه أمام الباحثين العرب.

ونحن نقرر أن فى الكتاب آراء قد يرفضها القارىء، ومنها محاولة المؤلف وغيره من المستشرقين ارجاع أصول ابن خلدون إلى أصل أسبانى، رغم قيام الأدلة القاطعة على أنه عربى حضرمى تونسى مسلم.

وهناك هُنات لا يخلو منها العمل الاستشراقى، لكنه لايخفى على حصافة القارىء اللبيب

• منهج الدراسة:

لقد قدَّمتُ الكتاب كما أراده المرحوم المترجم العلامة «عادل زعيتر»، وكتبت عنه الدراسة السابقة بإيجاز، وعرَّفت بمنهجه فى سطور، سائلا الله أن يهدينا إلى تنمية البحث العلمى، وتعريف العالَم بأعلامنا الذين قدَّموا للبشرية أعمالا فكرية كان لها الأثر البالغ فى تأسيس العلوم وبناء الحضارات، والله ولى التوفيق

عادل عبد المنعم أبو العباس

القاهرة- بنى مجدول

obeikandl.com

ابن خلدون..
فلسفته الاجتماعية

النص المترجم

obeikandl.com

obeikandl.com

أُقَدِّم ترجَمَة «ابن خلدون» لغاسْتُون بُوتُول...

غاسْتُون بُوتُول دكتورٌ في الآداب، ودكتورٌ في الحقوق، وعضوٌ في الَمعْهَد الدَّوْلِّي لعلم الاجتماع، وأستاذٌ في كلية الدراسات الاجتماعيَّة العليا بباريس.

والبروفسور غاسْتُون بُوتُول ذو تصانيفَ في علم الاجتماع كثيرةٍ معتبرةٍ أَلْمع فيها إلى ابنِ خلدون وآرائه في كلِّ مناسبة، ومن بين هذه الكتب ما اشتمل على عِدَّة صَفَحاتٍ بَحْثًا في مقدمة ابن خلدون، ولبُوتُول كتابٌ مستقلٌ سَمَّاه «ابن خلدون، وفلسفته الاجتماعية» أَلَّفَه سنة ١٩٣٠م، وقد قرأناه غيرَ مرةٍ، فوجدناه ينطوي على عنايةٍ بابن خلدون مع عُمْقٍ في التفكير والتحليل وروحٍ نَفَّاذٍ في التدقيق، وفي الكتاب يُرى ما يَعِزُّ وجوده عند غيره، أحيانًا من النزاهة والاعتدال، فحَمَلَنا هذا على نَقْلِه إلى العربيَّة ردًّا لتحية مؤلِّفه، وإطْلَاعًا على ما يحتويه من فوائدَ تاريخيَّةٍ رائعةٍ ومعارفَ اجتماعيَّةٍ طريفة وافرة.

ولا نَرَى أن نُلَخِّصَ الكتاب في مقدمةٍ طويلةٍ فنأخُذَه بالنقد والتمحيص، فتركُ الأمر للقاريءِ في مِثْلِ هذه الحال أَوْلَى من تناولنا له بالإيجاز والتدقيق.

واللهُ ولُّي التوفيق.

عادل زعيتر

نابلس